

من أدب الهند

## الأمير خسرو

الشاعر الهندي الكبير

بقلم السيد أبو النصر أحمد الحسيني

الهندي

ترجم سديقي الدكتور عبد الوهاب عزام بعض الأبيات الفارسية للشاعر الهندي العلامة الصوفي الكبير الأمير خسرو في (الرسالة) ، فأثارت الترجمة في نفسي ذكرى ذلك المبقرى العظيم أيام كنت أطلع بعض دواوينه وأحاول أن أقيس عظمة عبقريته في الصغر بفهم غير ناضج وإدراك غير كامل فكانت تفيض عن سمعها ، فكنت أستعين بمسامرات الاخوان ومحادثات الأقران . واليوم بعد نضوج الفهم حين أحاول قياسها أرى أن استقصاء جميع نواحيها لا يزال من غير المستطاع لي ، وإن كانت لذلك أسباب أخرى ، ولكن ما لا يدرك كله لا يترك كله . أحب أن أبلغ اليوم بقدر الامكان رسالته إلى « الرسالة » ، إذ حياة العطاء والأدباء رسالة وقدوة للأجيال في كل مكان وزمان ، وأثر أزهار الحديث عنه على مرقد الخالد الحى وهو ذكراه في القلوب

\*\*\*

ولد الأمير خسرو في الهند في مدينة بطيالي بقرب دهلي في سنة ٦٥٢ هجرية (١) من سلالة عريقة في الشرف من الأتراك المهاجرين الى الهند من مظالم جنكيزخان في وسط آسيا . فكانت قبيلته السماة « لاتشين » تسكن في بلدة تكش في ولاية ماوراء النهر ، قد هاجرت إلى الهند عند هجوم جنكيزخان ؛ وكان أبوه سيف الدين محمود رئيس تلك القبيلة . وكان في الهند حينئذ شمس الدين التمش ملكاً من ملوك المالك ، فرحب بجميع المهاجرين وأكرم وفادتهم . وأما أم خسرو فكانت بنت عماد الملك وزير الحربية للسلطان بلبن . وقد روى أمير خوند في كتابه سير

(١) استنبطنا تاريخ ولادته هذا من مصنفه « قران السعدين » الذي أتمه في سنة ٦٨٨ هجرية وقد ذكر فيه أنه كانت سنة حيثئذ ٣٦ سنة ، وأما ما كتبه العلامة المؤرخ المرحوم شبلي نعماني الهندي في كتابه « شعر المعجم » مستمداً على روايات أخرى أنه ولد في سنة ٦٠٥ هجرية فهو غير صحيح وما لا يعتمد عليه

الأولياء عن والده أن في جوار والدي الأمير خسرو كان يسكن صوفي كبير مسمى « أمير لا تشين » فلما ولد خسرو حمله والده ملفوفاً في القماش اليه ، فقال الصوفي : « أنتم جئتم إلى عن سبب خاقاني ( الشاعر الفارسي الشهير ) بدرجتين ؟

مات أبو خسرو وهو في الهابعة من سنه ، ولكن أمرته كانت مثيرة فلم تهمل تربيته وتعليمه ، فترقى خسرو في دهلي ، وكانت دهلي إذ ذاك حاضرة الحكومة منذ ثلاثة أرباع قرن ، فكانت مراكز العلوم والفنون ، ومحور الحضارة والمدنية ، ومأوى الفضلاء والعلماء ، ومطمح أنظار أهل الفن والصناعة مما يجعلها ثانية في الأهمية لبغداد . في هذا الوسط الراقى تربى خسرو فنبغ في العلوم والفنون المختلفة ، غير أن ميله الفريزي كان إلى ثلاثة : الشعر والموسيقى والتصوف ، فأجادها في أقل وقت ، وبلغ فيها درجة الأمامة

بدأ خسرو يقول الشعر وهو في صباه حتى أصبح الشعر له مهنة معترفاً بها من الجميع في نهاية العقد الثاني . ولكن تقاليد ذلك الزمن والظروف العائلية كانت تقتضي أن يكسب العيش بواسطة مهنته هذه ، فلم يكن له بد من أن يتصل بامراء (١) وسلاطين ذلك الزمن من مقدرى مهنته . فأتصل خسرو في سنة ٦٧٦ أول مرة بعلاء الدين كوشيل خان المعروف بين الناس باسم « ملك شجوة » ، وملك شجوة كان ابن أخت الامبراطور غياث الدين بلبن (٢) و « أمير حاحب » (أى رئيس الحجاب) في بلاطه . ولكنه كان فاضلاً يقدر العلم والفن ، واسع الصدر كريماً . فقد قال المؤرخ الشهير ضياء الدين برني ، وهو من معاصري خسرو وأصدقائه في كتابه تاريخ فيروز شاهي : « أنا سمعت كثيراً ممن أعتمد عليهم ، ومن الأمير خسرو أنه لم يوجد مثيل الملك علاء الدين كوشيل خان في سعة الصدر والكرم ، وفي اطلاق الرصاص والصيد ولعب الكرة ، وكان الملك علاء الدين قد نال شهرة واسعة وإن لم تدم ، حتى أن هلاكوخان الشهير أرسل اليه خنجرأ

(١) كان في القرون الوسطى في الهند « خان » و « ملك » و « أمير » ألقاب رسمية لتعيين منزلة الموظف . فيلقب بـ « خان » الموظف الذي يقدر على حشد مائة عسكري ، و بـ « ملك » من يقدر على ألف ، و بـ « أمير » من يقدر على عشرة آلاف . هذا كان في بادئ الأمر ، ولكن بعد مرور الزمن زالت تلك الاعترافات ، فأصبحت تطلق كلمة « أمير » على جميع موظفي الحكومة مهما تكن منزلتهم عالية

(٢) ملك من ملوك المالك حكم على الهند من سنة ٦٦٤ هجرية إلى سنة ٦٨٦ هجرية

خمس سنين ، وكان دائماً موضع العطف الخاص والاحترام والتكريم ، لأن خان شهيد كان أمثل الأسماء على حسب تعاليد الزمن في الأخلاق والشجاعة والعلم والأدب ، ومن أكبر مقدرى الفنون والشعر ، فقد وجد في بيانه (١) ثلاثون ألف بيت يعترف بها نقاد الفن على كمال الذوق وحسن الاختيار والعلم الواسع ، وكان بيته ملجأ العلماء ومأوى الفضلاء ، وكان يبذل قصارى جهده في جمع كبار العلماء والفضلاء والشعراء في مجلسه ، فقد دعا الشيخ سعدى الشيرازى الشاعر الفارسي الشهير مرتين ، وأرسل إليه نفاقات السفر و وعد ببناء مومنة له في بلدة ملتان والانعام الكثير ، ولكن الشيخ اعتذر لكبر سنه ، وبعث إليه بعض غزلياته مكتوبة بيده ، ولفت نظره للشاعر الأمير خسرو مبالغاً في مدح ذكائه وفضله (٢)

\*\*\*

في سنة ٧٨٧ هجرية هجم المغول على الهند ؛ فقام خان شهيد للدفاع عن بلاده وقتل ، ولم يكن الأمير خسرو جليس الأسماء فقط ، بل كان قائداً عسكرياً أيضاً ، فقد اشترك في محاربة المغول مع سيده ووقع أسيراً في يدهم بعد أن قتل سيده فكابد ما كابد على أيديهم من الألم والأذى . ذكر ذلك بكلمات مؤثرة في رثائه الشهير لسيدة تنقل بعض أبيانه الى العربية ؛ قال :

« ثم فاجأتنا نازلة من السماء الزرقاء ، وقامت القيامة على الأرض ، إذ فرقت جماعة أصدقائنا مثل تفریق أوراق زهرة الورد بريح الخريف المحترقة للحديقة »  
ثم وصف آلام أسره فقال :

« إن شهداء المسلمين لونوا الصحراء بلون دهم ، بينما كانت أعناق الأسارى منظومة نظم الأزهار في الأكليل . وأنا أيضاً كنت أسيراً (٣) خوفاً من أنهم يريقون دمي ، لم تبق في عروق قطرة من الدم . وكنت أجرى كالماء هنا وهناك مع نفضات لا تمتد على قدمي مثل الفقاقيع على سطح النهر . وكان لساني قد جف من العطش الشديد ،

(١) يانص عبارة عن مذكرة أو كراسة يكتب صاحبها في الأبيات المختارة من الشعراء المختلفين . ويانص خان شهيد كان أعطاء أبوه الامبراطور بلبن لمحافظة الحبر أمير على ومنه وصل الى الأمير خسرو

(٢) منتخب التواريخ للبدايوى

(٣) لم يذكر خسرو عن نفسه أنه كان أيضاً مربوطاً مع الأسارى الآخرين ، وربما ذلك لأنه كان قائداً في الجيش ، ففرقوا بينه وبين الأسارى الآخرين برجاه مفادته

وعرض عليه أن يكون حاكماً على نصف العراق لو أراد الذهاب هناك . ولكن خاله الامبراطور بلبن استنكر حربيته الخارجة عن العادة (١) . ويذكر المؤرخ برني في محل آخر أن شجوة كان أغزهم جوداً وأعظمهم منحاً ، وزع جميع أملاكه على الناس ولم يبق لنفسه إلا المطف الذي ستر جسمه . ومن أمثال جوده وتقديره للشعر أنه أعطى جميع الخيل في اصطبله للشاعر خواجه شمس معين ووزع عشرة آلاف تنكة (٢) على المنين عند تقديم قصيدته وإنشادها إياه . ولم يكن خسرو أقل حظاً من هؤلاء الشعراء لتفوقه عليهم وذكائه الخارق . فقد قال قصائد غير واحدة في مدح شجوة ، ونحن نقل إلى العربية بعض أبيات من قصيدته البديعة التي تعد مثلاً للنمو الشرقى في المدح قال :

« إن الأشعة البهيجة لنور الصبح الملون بلون العنبر قد بددت ظلام الليل ، والهلال الأصفر كالربوق (٣) بقرنيه المقوسين كاد أن يغيب عن النظر ، فسألت الصبح : أين شمك الموعود بها ؟ فأراني وجه شجوة الشرق بنوره البازغ ؛ ثم توجهت الى السماء الرصعة بالنجوم ، فسألها : من يساعد نجومك في سيرها ؟ فضحكت من سؤالى العبث ، وأرتنى أيدى الملك التي جعلتها مستقيمة »

لم يدم اتصال خسرو مع ملك شجوة أكثر من سنتين ، فان قلب شجوة تغير على الشاعر خسرو لحادثة حدثت ، وهي أن نصير الدين بفرخان النجل الثاني للامبراطور غياث الدين بلبن كان مره على مآدبة شجوة والشاعر كذلك ، فلما سمع منه شمره استحسنته وسر كثيراً وقدم له طستاً مملوءاً بالنقود الفضية ، فنفضب شجوة على خسرو لقبوله هذا الانعام وتغير ؛ وعبثاً حاول خسرو بعد ذلك لإرضاءه

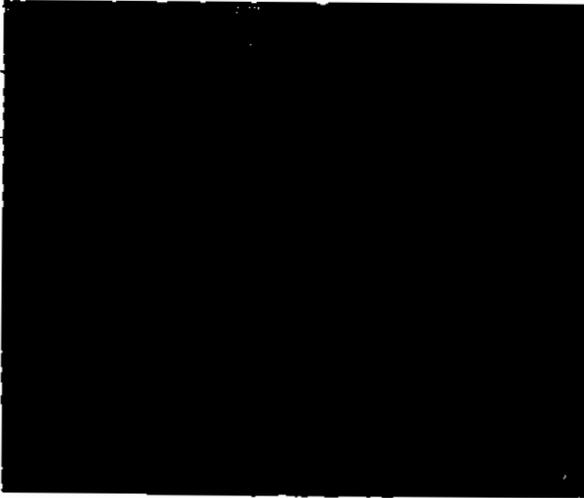
اتصل خسرو بعد ذلك بنصير الدين بفرخان حاكم سمانا لمدة قصيرة ، ثم انقطع عنه واتصل ببيده بسلطان محمد الشهير بخان شهيد ، النجل الأكبر للامبراطور غياث الدين بلبن ؛ وكان خان شهيد حاكماً على إقليمى البنجاب والسند ، وعندما حضر الماصمة دهلي مع ربيع الاقليمين في سنة ٧٨٢ هجرية قابل الشاعر خسرو وأخذته الى البنجاب . بقى خسرو مع خان شهيد

(١) تاريخ فيروز شاهى ص ١١٣ و ١١٤

(٢) اسم العملة الذهبية والفضية في ذلك الزمن

(٣) أى من أصابه مرض البرقان

في الطريقة الصوفى الولى الكبير مولانا « نظام الدين أولياء »  
وأهداها إلى السلطان علاء الدين . وبينما كان مشغولاً بتصنيف  
ليلي والمجنون منها فقد أمه وأخاه في سنة ٦٩٧ هـ ، ورنأها بكلمات  
تسيل الدموع في مصنفه ، فنقل رنأه لأمه الى العربية قال :  
« وفي هذه السنة فقدت نورين من نجمتي وهما أمي وأخي ،  
أسبوع واحد من سوء حظي فقدت فيه قرين !  
إن حظي كبسني من جهتين ، والفلك بددني بظلمتين ،  
فأصبح نوحى مزدوجاً ونغمى مضاعفاً ، واحسرتاه ! أنوح على الاثنين  
وأسفاه ! ألمان لثلى ! إن شعلة واحدة كانت تكنى لمزرى  
إن صدرًا واحدًا لا يتحمل ثقلين ، ولا رأسًا واحدًا وجمعين ،  
إن أمي تحت التراب ، فلا غرو أن أوث رأسي بالتراب  
يا أمي ! أين أنت ؟ لم لا تربني عبياك ؟  
اطلعي ضاحكة من قلب الأرض ، وارحمي بكأى المر !  
إن في كل أثر من قدمك لى تذكاراً من الجنة ،  
إن وجودك كان حافظاً لنفسى ومعيناً ومتكأى لى ،  
يوم كنت تتكلمين بشفتيك كان نصحك صلاح أمرى ،  
واليوم ختم على (لسانى) وسكوتك لا يزال ناصحاً  
\*\*\*



ضريح الأمير خسرو وهو من رنأم أيفس ناصح يتصل به مسجد  
في ضاحية من ضواحي دهلى

صنف خسرو في عهد علاء الدين ما عدا بنج كنج (أى الخزائن  
الحس) ثلاثة أو أربعة كتب أخرى سببها عند كلامنا عن  
مصنفاته ، وفي سنة ٧١٥ هـ جرية توفى علاء الدين فتولى الأمر  
قطب الدين خلجى فانصل به خسرو وصنف في عهده « نه سبهر »  
أى (الإفلاك النسة) وقدمه اليه فسر السلطان منه جداً وأنم

ومعدنى التصفت (بظهورى) من الجوع . وهم (أخذوا  
تياى) وتركونى عريان مثل الشجرة المجردة من الأوراق  
في زمن الشتاء ، أو الزهرة المخموشة بالأشواك . والمغولى  
الذى أسرنى كان جالساً على الحصان مثل الأسد ، وكانت  
الرائحة الكبريهه تسطع من فمه وإبطه ، وكان على ذقنه  
خصلة من الشعر الوسخ مثل النبات . فان توانيت وراءه  
من الضعف كان يهددنى نارة بمقلانة ونارة برمح ، فكنت  
أتمهد على تلك الحسالة وأرى أن النجاة منها مستحيلة .  
ولكنى أشكر الله على أنى استعدت حربتي بغير أن يطعن  
صدرى برمح ، أو يقطع جسمنى بسيف »<sup>(١)</sup>

وحكاية استعادة حربته هى أن المغولى وحاشيته وخيله كلهم  
زلوا في النهر عند غسق الليل لشرب الماء فانهز خسرو الفرصة  
وهرب<sup>(٢)</sup> وبعد وصوله إلى دهلى كتب هذا الرنأ المؤثر الذى  
شاع وذاع حيث أصبح به خسرو معروفاً عند عامة الناس أيضاً  
بقى خسرو بعده في مسقط رأسه في خدمة أمه حتى تولى  
الأمر ميرز الدين كيقباد ، وهو آخر ملوك المايليك ، فانصل به  
وصنف له كتابه الشهير « قران السمدين » على طلبه ، ولم تمض  
مدة قليلة حتى انتقل الحكم من المايليك إلى الأسرة الخلجيه .  
فتولى الأمر أول ملوكهم السلطان جلال الدين خلجى الذى كان  
يمرف خسرو ويعترف بشعره وذكأه قبل اعتقاله العرش . ففتح  
خسرو لقب « الأمير » ، وعينه فى منصب أيبه عبرت ألف  
ومائتى تمكة في السنة . ثم رفعه الى منصب محافظ القرآن المللكى .  
فأصبح من أعضاء بلاط المللك ومن ندمائه . فكتب له خسرو  
كتابه « مفتاح الفتوح » ، وهو تاريخ غزوات جلال الدين  
خلجى بالشعر . نشبت حرب أهلية بين العائلة المللكيه فقتل  
فيها جلال الدين وتولى الأمر ركن الدين خلجى لمدة أقل من سنة ،  
ثم تولى علاء الدين خلجى ، فانصل به الشاعر خسرو ، وهو أطول  
انصالاته بالأمرء ، لأن حكومة علاء الدين دامت عشرين سنة ،  
وهى أيضاً مدة أكثر انتاجا في حياة خسرو . فقد صنف فى أقل  
من ثلاث السنين الأولى من تلك المدة خمس روايات قصصية  
منظومة وهى : (١) مطلع الأنوار ، (٢) شيرين وخسرو ،  
(٣) ليلي والمجنون ، (٤) آئين سكندرى (أى القانون  
الأسكندرى) ، (٥) هشت بهشت (أى الجنات الثمان) ، وتسمى  
كلها أيضاً « بنج كنج » أى « الخزائن الحس » . ودشنها لشيخه  
(١) منتخب التواريخ للداونى  
(٢) وهذه الحكاية قد ذكرها خسرو في مصنفه « دول رانى »